المجتمعات الصحراوية فى المغرب: بين الأسير والباحث
محاولة قراءة منهجية فى نص الخطاب الفرنسى

عبد الكريم مدون[1]

ارتبطت المرحلة ما قبل الاستعمارية والاستعمارية فى المغرب بظهور مجموعة من الكتابات الأجنبية حول المجتمع المغربى، وقد صنفت هذه الكتابات بعد استقلال المغرب فى خانة الكتابات الكولونيالية أى الدراسات التى حاولت قراءة المجتمعات المستهدفة من طرف الاستعمار الأوربى. لقد اختلفت الدراسات والأبحاث التاريخية حول التأويلات المعرفية الممكنة اتجاهها بين منتقد ومنبهر، وهما منهجان ارتبطا ببعدى الهدم المعرفى والتأسيس البديل لبنية المجتمع المغربى.

إن دراسة أى مجتمع قد تبدو عادية حينما يتعلق الأمر بالمعرفة النمطية والكلاسيكية لمجتمعات الاستقرار بحيث تصبح عملية ضبط حركية مثل هذه المجتمعات مبنية على ثوابت قد تتغير عبر الزمن الطويل وفى مجال محدد، لكن الأمر يختلف حينما يغيب هذا البعد على مستوى المجال وعلى مستوى تعامل المجتمع مع تقلبات المحيط غير المستقر.

إن البحث فى حركية المجتمعات المتحركة «الرحل» تقتضى محاولة وضع قراءة خاصة لهذه المجتمعات تنطلق من محاولة فهم الممارسات الاجتماعية للفرد والجماعة داخل مجتمعات الرحل، وهى الممارسات التى يمكن من خلالها فهم أى تصرف فى المكان والزمان الذى يصدر عن هذه المجتمعات، فمن المؤكد أنها تصرفات تبدو عادية إن هى قُرِأت لذاتها، وهى تبقى غريبة عند مقارنتها بممارسات مجتمعية نعبر عنها بالحضارية.

إن مصطلح التحضر يبقى مبهما حينما نقارنه بعدم التحضر أو التوحش كما يؤكد على ذلك ابن خلدون حيث يقول:

«اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضرورى وبسيط قبل الحاجى والكمالى... فالبدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عن ما فوقه...

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد. كلية الآداب – جامعة أغادير.

وأهل البدو هم أقرب إلى الفطر الأولى وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم فى الضواحى، وبعدهم عن الحامية... قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يتقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... ببأسهم قد صار لهم البأس والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ... فلما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش فى القفر... فصار لهم إلف وربيت فيه أجيالهم»[1].

إن اعتماد النص الخلدونى يعتبر منطلقا لمقاربتنا للنص الأجنبى هذا النص الذى يحمل إشكالا يتمثل فى طبيعة نظرة الخطاب الفرنسى بالأساس، الذى اخترناه نموذجا فى هذه الدراسة لمجال الصحراء والمجتمع الصحراوى المغربى، فإذا كان اختيارنا للنص الخلدونى يحمل تبريرات الفهم الخاص لمجتمع البدو فإن اختيارنا للنص الفرنسى يرتبط بمستويين من الكتابات.

الأولى صادرة عن الأسرى لدى القبائل الصحراوية خلال القرن الثامن عشر وقد اخترنا نصين لأسيرين الأول (SAUGNIER) التاجر والمغامر الفرنسى الذى كان على متن السفينة(Les deux amis) التى غرقت فى ١٧ يناير ١٧٨٤م فى السواحل الأطلسية الممتدة بين رأس جبى ورأس بوجدور.

أما النص الثانى فهو لـ (BRISSON) وهو من عائلة نبيلة واشتغل فى إدارة البحرية الفرنسية وقد كان على متن السفينة (La Sainte – Catherine) التى غرقت على السواحل الأطلسية فى يوليو ١٧٨٥م وقد أسر لدى قبيلتى أولاد بوالسبع ثم أولاد الدليم[2].

المستوى الثانى من الكتابة له علاقة بالبحث الذى قد نقول إنه يكتسى صبغة علمية ويقترب شيئا ما من الطرح الخلدونى وقد مزجنا فى هذا المستوى بين البعد النظرى والتطبيقى من خلال ما كتبه روبير مونطان (ROBERT MONTAGNE) فى كتابه حضارة الصحراء وفى دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنطية.

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، جـ ٢، القاهرة نهضة مصر، ١٩٨١م، ص ص ٤٦٧ – ٤٨٥.

(٢) Maurice Barbier, Trois Français au Sahara occidental en 1787 – 1786, Paris, L'harmattan, 1984, pp. 26 – 37.

إذا كان نــص ابــن خلدون يركز علــى مجموعة من الخصائص التــى تميز البدوى فى الصحراء خاصة مربى الإبل والتى حددها فى التوحش والكفاف والكرم والشــجاعة، فإن النص الفرنســى فى القرن الثامن عشــر اعتبره نوعا من التخلف وعدم التحضر، وهو رأى مخالف لما ذهب إليه (Montagne) حينما اعتبر هذه الممارســات نوعا من التحضر يجب دراستها لذاتها بالأساس، فهو يقول:

«يجب أن نكلف أنفسنا مجهود فهم البدو الرحل، من خلال محاولة التفكير كما يفكرون، لذلــك لا بــد لنا أن نتخلى عن أحكامنا المســبقة وعن طريقتنا فى قياس الزمن وفى تقســيم المجال وفى استشراف المستقبل وكذا التخلى عن عاداتنا فى الحكم عن الناس والأشياء»[1].

إن هذا الخطاب، برغم كونه نابع عن باحث يشــتغل مع المؤسســة الاســتعمارية فى المغرب، فهو يحمل هما علميا يدخل فى إطار الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، حينما يصبح البحث العلمى الرزين أداة لفهم المجتمعات الصحراوية.

لقد تجســدت هذه الرغبة من خلال المؤتمر الذى نظمته الســلطات الاستعمارية الفرنسية حول المجالات الصحراوية بمؤسســة الدراســات العليا المغربية بالرباط فى ٣ مايو ١٩٣٠م، والذى أرادت من خلاله فهم الخريطة المجالية والاجتماعية لما كان يسمى بالصحراء الغربية.

الترحال ممارسة اجتماعية وتوازن بيئى

ترتبــط كلمــة الرحل NOMADE بالأصــل الإغريقــى NEMO أى التوزيع أو تقديم جزء من المرعى لقطيع من الماشية أو NOMAS أى أرعى، وبذلك فالسلوك الترحالى يعبر بالأســاس عن نمط للعيش لا عن إثنيات وشــعوب، وبذلك تصبح البداوة عبارة عن نمط فى الحيــاة قائم على التنقل الدائم للإنســان فى طلب للرزق حول مراكــز مؤقتة يتوقف مدى الاســتقرار فيها على كمية الموارد المعيشــية المتاحة فيها من ناحية، وعلى كفاية الوســائل الفنية المستعملة فى استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعى الطبيعى الذى يمكن أن يتوفر فيها[2].

(١) Robert Montagne, La civilisation du désert nomades d'orient et d'Afrique, Paris, Hachette, 1947, p. 13.

(٢) محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتى الساقية الحمراء وواد الذهب، الرباط، ٢٠٠٦م، ص ٢٢.

إن الأصل فى التنقل والترحال هو الإبل، فهناك اتحاد وثيق بين الإنسان والحيوان إلى درجة أنه إذا غاب الجمل فسيستقر الرحل، فحركة الترحال هى حركة استراتيجية أكثر منها اقتصادية وهو ما يجعل ثقافة الرحل مبنية على التعقيد بحيث لا يمكن فهم مجتمعات الرحل فى الصحراء دون فهم للعقلية التى تؤسس هذه البنية الاجتماعية، وذلك عن طريق ضبط لأدوار الفاعلين الاجتماعيين، بحيث إن كل فاعل يؤدى دوره فى إطار منظومة متكاملة متضامنة تحكمها قسوة البيئة والمجال وهو ما يجعل أفراد هذا المجتمع يمارسون ثقافة تنعت بالنهب والوحشية وتنزع عنها صفة التحضر.

إن ساكن الصحراء يتميز بممارسات فكرية وثقافية لها علاقة بالمجال من جهة وبالمعتقدات والفراغ من جهة ثانية، فالفراغ والمجال القاحل قريب منهم ودائم ويومى، وبذلك فإن تقسيم الأدوار داخل المجتمع يحتمل الدقة من خلال الأدوار الموزعة بين أفراد العائلة أو العشيرة، وبذلك تصبح الروح الأنانية للفرد محددة تحديدا اجتماعيا بحيث تعيش فى إطار المقولات الذى يدين بها فى تكوينه[1].

إن هذه الممارسات تؤدى إلى اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم فى المجتمع بحيث يختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لا يشارك فيها عدد أفراد المجتمع الآخرين[2]، كل هذه الأدوار تحمل خصوصية داخل المجالات الصحراوية فهى تؤسس لبنيات ومعتقدات حامية للنفس والجسد وهى تؤمن المجتمع والقطيع ضد المخاطر وتجعله يؤسس لنفسه طقوسا خاصة فى السفر والتنقل والسكن والأكل والشرب كل هذه التوجهات تحمل تيمات بيداغوجية وقيم تدافع عن استمرارية النظام وخلقه لتوازن بين الإنسان والبيئة.

إن هذه القيم والمعتقدات قد تبدو مشتركة بين جميع المجتمعات إلا إنها تشكل استثناء فى المجالات الصحراوية ومجتمعات الترحال، حيث الضعف الديموغرافى وصغر المجموعات الاجتماعية وهشاشتها، فأى تغير عميق فى علاقة المجتمع مع محيطه يترجم برد فعل آنى ويومى.

(١) إلهام غالى، الأنتروبولوجيا الفكرية، دراسة فى أنتروبولوجية بيير بورديو، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٩.

(٢) الزهرة إبراهيم، الأنتروبولوجيا والأنتروبولوجيا الثقافية، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٢٤.

إن معرفة طرق ومعتقدات تفكير هذه المجتمعات كفيل بفهمها، بحيث إن تغير أو تطور المعتقـدات الخاصـة بهذه المجتمعات لا يمكن أن يتم إلا عند الضرورة التى تؤدى إلى خلق آليات جديدة تتناسب لضمان استمرار الحياة وتجدد المجتمع[١].

يجـب أن تنطلق أى قـراءة لمثل هذه المجتمعات من مسـتويين، يبحث الأول فى علاقة الإنسـان بالإنسـان، ويبحث الثانى فى علاقة الإنسان بالوسط الذى يعيش فيه. وانطلاقـا مـن هذين المبحثين تصبح غاية البحث فى هـذه المجتمعات متمثلة فى فهم آليات تحقيق التوازن، فالظروف القاسية للمجال هى التى تدفع الفاعل الاجتماعى إلى ممارسة طقوس محددة تدور فى فلك الحيوان الأساسى فى الصحراء الممثل فى الجمل، من أجل تأمين التوازن.

إن حيـاة المجتمعـات الصحراوية مرتبطة بتدخل مجموعة مـن العناصر والظواهر التى تخرج عن مسـتوياتها الافتراضية القائمـة فى المجال أى الطبيعية، نحو مبادرة الإنسـان الذاتية الخاصة بالثقافة الخاصة المعاشـة من الداخل وهى الثابتة والمستوحاة مـن الخارج وهى المتحركة، وتتحكم هذه الثنائية، مع وجود فوارق بينهما، بعمق فى تصرفـات المجتمعـات الصحراوية، وهى التصرفات التى يجـب أن نفهم ونحلل من خلالها هذه المجتمعات[٢]. بعيدا عن النعوت التى أطلقت على سـاكنى الصحراء من قبيل الكسل والتخلف والتعصب والخيانة والتوحش والبدائية وعدم الثقة فى الغد وغير المنظم، والمتسـخ[٣]، وكلها نعوت تختلف عن البعد الرمزى لحياة الرحل، فالدراسـة السياسـية والاقتصادية والاجتماعية المعزولة عن البنية الثقافية المندمجة التى تعبر عن حركية نفسانية تميز هوية الإنسان الصحراوى فى علاقته مع محيطه المبنى على حياة جماعية معقدة.

فكيف لامس الفرنسـيون الأسـرى هذا المجتمع خلال فترة أسرهم وكيف حللوا وقرءوا ووصفوا هذه المجتمعات؟

---

(١) Marceau Gast, le saharien comme concept dynamique, cadre culturel et politique, in revue de l'occident musulman, V32, N1, 1981, pp. 80 – 81

(٢) Jacque Berque, Cent – vingt ans de sociologie magrébine, annales économies, sociétés, civilisation, V11, N3, 1956, pp. 297 – 308.

(٣) Marceau Gast, op. cit, pp. 81 – 90.

مقاربات نص خطاب الأسير للمجتمعات الصحراوية

ننطلق للإجابة عن هذه التســاؤلات من نصين كتبا خلال فترة الأســر التى تعرض لها فرنســيين خلال القرن الثامن عشــر لدى المجتمعات الصحراوية، وعملية الأسر هاته لها علاقة بتحطم وغرق العديد من السفن الأوربية فى السواحل الأطلسية حيث يصبح الناجون أسرى الصدفة لدى قبائل المجمعات الصحراوية والذين يتحولون إلى سلع تجارية يكسبون من خلالها مداخل مالية.

إن المجىء غير الاختيارى منذ بداية القرن الثامن عشر للأجانب إلى سواحل الصحراء واســتمرارها إلى القرن العشــرين أعطى مجالا سمحا لهؤلاء أن يعيشــوا ويتعايشوا مع هذه المجتمعــات وبالتــالى إمكانية وصفهم من خلال نظرة خاصة تعبر عن اعتقادات شــخصية لهؤلاء الأسرى بالصدفة.

نطرح فى هذه الدراســة نصين لروية كل من (Saugnier) ســنة ١٧٩١م و(Brisson) ســنتى ١٧٨٦ – ١٧٨٧م. وتعتبر هذه النصوص، انطلاقا من مقارباتنا السابقة، عن أحكام غير خاصة لا تعتمد الحياد، وهى نتيجة ترتبط أساسا بنفسية الأسير أكثر من واقعية النقل المنطقى لحياة هذه المجتمعات وهو ما يؤكده (Saugnier) نفسه حين يقول:

«إننا لا نحكم على تصرفاتهم سوى من خلال خيالنا»[١] إن هذا الخطاب سواء بالنسبة لرواية الأســير أم بالنسبة لقارئها يحمل أحكاما قيمة وإن مناخ العصر كان يتحكم فى هذه الأحــكام ويوجههــا، لذلك فقراءة هــذه الرواية لا ترتبط بما يقدمه الرحالة والمستكشــفون الأوربيون حول المجتمعات الصحراوية، والذين حددت لهم أدوارهم مســبقا، ولكن تبقى القراءة المحتملة للأسير كموضوع وضحية وسلعة[٢].

لقد تضاربت التقارير فى تحديد عدد الأسرى فى المجال الممتد بين رأس بانى والرأس الأبيض حيث إن تقريرى الإنجليزى (Jackson) والإســبانى (Caro Baroja) يؤكدان أن

(١) Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in Olivier Vergniot, la distance en histoire: Maroc Sahara occidental, in revue de l'occident musulman, V48, N1, 1988, p. 98.

(٢) Olivier Vergniot, De la distance en histoire. Maroc – Sahara occidental: Les captifs du hasard (XVII – XXe siècle) in revue de l'occident et de la Méditerranée, V48, N1, 1988, pp. 97 – 99.

هناك ما يعادل ٢٠٠ حالة غرق للسفن الأوربية بين سنتى ١٧٥٠م و١٨٥٠م، وبما أن كل سفينة يتكون طاقمها من ١٢ فردا فحسب هذه الإحصائيات يصل عدد الأسرى إلى ٢٤٠٠ أسير، تبقى هذه الإحصائيات بعيدة عن الصحة حيث إن مجموعة من الوثائق تؤكد أنه خلال الفترة ما بين ١٧٦٨م و١٨٩٢م حصلت ٣٢ حالة غرق تمثل ٢٨٠ حالة أسر وقد تصل الاحتمالات إلى ٦٠٠ حالة ثم أسر ٥٠٠ حالة وتمكنت الحالات المتبقية من الفرار، وتبقى الملاحظة العامة حول هذه الظاهرة متمثلة فى انعدام وجود أسرى من النساء[١].

لقد كانت الخريطة القبلية غير معروفة لدى الأوربيين والرحالة، كما أن طاقم السفن، التى تتعرض للغرق، لم تكن مهمته استكشاف مجتمعات هذه القبائل، وحتى وإن ذكرت بعض أسماء القبائل مثل أولاد دليم وأولاد أبو السبع إلا أن الكلمة الأكثر استعمالا لنعت هذه المجتمعات هى كلمة المسلمين.

لقد كانت مجالات الأسر تنقسم إلى مجالين الأول فى الشمال يمثله مجال واد نون حيث يسكن البربر نصف الرحل، ويصبح بذلك الأسير سلعة تباع بشكل آنى ومباشر. أما المجال الثانى فيوجد فى الجنوب بين رأس بوجدور والرأس الأبيض ويقطنه حسب تعبير هؤلاء الأسرى أنفسهم الرحل المتوحشون وهم من العرب البيضان.

إن عملية الأسر فى هذا المجال تتم من طرف بعض الصيادين الذين يقدمون كل من تعرض لهذه العملية للقبائل الأكثر قوة مقابل تعويض رمزى، وبين هذه القبائل يخضع الأسير لتصنيفات ترتبط بمدى قدرته على العمل مما يجعل القادر على العمل يستمر مدة أطول من غير القادر أو المريض الذى يباع بشكل مباشر كى لا يكون عبئا على سيده، لقد كان الأسير المسيحى مطلوبا من طرف الوسطاء أو المخزن أو القناصل وذلك عكس العبد الأسود الذى لا يطلبه أحد[٢].

لقد سمحت طول المدة، التى يقضيها الأسير المسيحى عند سيده والتى قد تفوق فى بعض الحالات السنة، بإمكانية إبدائه لبعض الملاحظات حول المجتمع الذى يعيش بينه قبل بيعه، وإذا سبق لنا أن تحدثنا عن نمط العيش الذى تتميز به المجتمعات الصحراوية فإن الأسير بغض النظر عن جنسيته يصبح سلعة تدخل فى حركية هذا المجتمع وإلى

(١) Olivier Vergniot, op. cit. pp. 100 – 101.

(٢) Ibid, pp. 105 – 105.

غاية حصول عملية البيع التى تتم غالبا عن طريق المقايضة مقابل ثلاث رءوس من المعز أو جمـل أو جملين، فهو فاعل فى عملية التوازن داخل المجتمع الصحراوى، فكيف وصف (Saugnier) و(Brisson) مجتمعات الصحراء حيث مكثا مدة طويلة.

لقد كان مجال تحرك هذين الأسـيرين جنوب واد نون فى مجال الساقية الحمراء وواد الذهب، فسـونيى يقسـم هذا المجال الذى يعتبره ممتدا من بلاد البربر إلى نهر النيجر إلى ثلاثة أقسـام كبرى متوازية الأولى فى الشـمال حيث مملكة فاس ومراكش وسوس، الثانية فى الوسط حيث توجد المجموعة التى يسميها عرب بلاد الجريد وتمتد من ماسة إلى رأس بوجـدور، الثالثة فى الجنوب حيث يسـكن العرب الرحـل أو البيضان، وتمتد بين رأس بوجدور ونهرى السنغال والنيجر[1]. إذا اكتفى سونيى بذكر المجموعات الكبيرة التى تقطن فى الوسط والقسم الجنوبى أى تكنة والركيبات، فإن بريسون فصل أكثر حينما ذكر أسماء بعـض القبائـل الكبيرة فى هذا المجال فهو يؤكد فى روايته أن هذا المجال تسـكنه قبائل كبيرة إلى حد ما تتداخل فيما بينها، وتعيش على التنقل وتستقر حيث المراعى المتوفرة على الأكل للقطيع ويتحدث فى روايته على تقسـيم مجالى شمال (Rio de oro) وادى الذهب تسـكنه قبائـل العروسـيين وأولاد تيدرارين ومجال ثان جنـوب (واد الذهب) بين الرأس الأخضر وأدرار وتسكنه أولاد دليم وأولاد بوالسبع[2].

لقد اتفقت الروايتان على وصف هذه المجتمعات بكونها تدين بدين محمد، ومع ذلك ففـى عادتهم تذكر هاتـان الروايتان بعض القوانين الطبيعية التـى تعبر عن بصمة خاصة بخرافات بعيدة عن الدين الإسلامى، وبرغم هذا الحكم فقد تحدثت الروايتان عن الطريقة التى تؤدى بها الصلاة وعن عملية التيمم التى تتم بواسـطة الرمال بسبب غياب الماء، وإذا كان بريسون قد تحدث عن صلاة طلوع الشمس، وعن مشاركة النساء فى هذه الصلاة وصلاة العاشرة ليلا أى العشاء داخل خيامهن، فإنه لم يذكر عدد الصلوات التى تتم خلال اليوم، خلافا لسونيى الذى حددها فى ثلاث صلوات، كما أكدت الروايتان أن الصلاة تتم بشكل جماعى بوجود إمام.

(١) Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in Maurice Barbier, op. cit, pp. 131 – 133.

(٢) Brisson, Histoire du naufrage et de la captivité de M. Brisson, Paris, 1789, in Maurice Barbier, op. Cit. p. 197.

إن الإشـكال فى عملية نقل طقوس الصلاة لا يكمن فى عملية وصفها، كما سـبق ولكن فيما يتبعها من ممارسـات وطقوس – كما قال بريسـون – تشـبه ما يفعله المسيحيون فى الكنيسة، فهو يقول:

«حينما تنتهى الصلاة يبقون جالسين بعض الوقت، ويرسمون بأصابعهم أشكالا مختلفة فوق الرمال ويديرونها فوق رءوسهم كأنهم يقومون برشها، هؤلاء المتوحشون خلال طقوسهم يمارسون نفس الاحترام الذى نشعر به فى كنائسنا، مع ذلك لا أعتقد أنه من الممكن العبث بالدين أكثر مما يفعلون بمجرد نهاية الصلاة»[1].

إن هـذا الخطـاب يحمل صـورة كاريكاتورية على ممارسـة طقوس الصـلاة لدى هذه المجتمعات فهو ينعتها بالتمرين، يمارسه شخص ويتبعه آخرون سواء على مستوى عملية التيمـم أم أداء الصلاة، وأما تركيزه على ممارسـات قد تبقـى عادية بعد كل صلاة، على كونها تلاعب بالدين إلا تعبيرا عن عدم فهم حقيقى للمجتمع الإسلامى.

إن هذه الصورة قد كررها بريسـون عندما تحدث عن تعلم الأطفال الكتابة والقراءة فقد وصـف طريقة التعلم التى تتم بصـوت عال برغم اختلاف الدروس من طفل إلى آخر، لكنه عبر عنه بالخليط الفظيع، كما وصف الطريقة التى كانت تكتب بها الألواح وكيف تمسـح وشكل القلم الذى تتم به الكتابة[2]، وإذا كانت هذه هى الصورة التى وضعها بريسون حول طريقة التعلم فإن سـونيى أعطاها بعدا آخر حيث أوضح لنا أهمية المعلم الفقيه فى تكوين الأطفال وتحركه الدائم لتحقيق هذا الغرض.

إن عملية التعلم حسـب بريسـون تبـدو تراتبية حيث إن الكبـار يأخذون تعليمهم من الفقيه مباشـرة والصغار ممن هم أكبر منهم، كما أكد أنه فى المجالات الصحراوية تدخل هـذه العملية فى إطـار ثقافة وعادات المجتمعات الصحراويـة والمتمثلة فى انعدام مخالفة رغبات الفرد وعدم معاقبة الأطفال، مما يؤدى إلى أن تعلمهم يعتبر نوعا من الاستراحة من عمـل آخر يدخل فى مراقبة قطيع العائلة، فالطبيعة تعتبر مؤثرة فى التربية فإذا ما أحس الطفل بنوع من الملل فى التعلم فإنه يذهب لممارسة نشاط أخر يدخل فى إطار عمل الفاعل الاجتماعى الذى يؤسس للتوازن.

(١) Ibid, p. 199.

(٢) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 215.

لقـد خلص بريسـون إلى أن القليل ممن يختص بالتعلم ليصبح فقيهـا ذا مكانة داخل المجتمع والوصول إلى هذا المستوى يكون فى مرتبة متقدمة داخل مجتمعات الرحل[١].

إن مقاربـة بعـض المفاهيـم الواردة فى نصوص خطاب الأسـيرين من قبيل الشـجاعة والوحشـية تدفعنـا إلى محاولة أخرى فى القراءة تنطلق من النص نفسـه ونسـتعير جملة اسـتعملها بريسـون حينما تحدث عن التربية التى تعطيها الطبيعـة للفرد، وبذلك يصبح تكوين الفرد داخل هذا المجتمع يحكمه المفهوم الخلدونى للتوحش، إذ إن الطبيعة القاسية هـى التـى تصبح متحكمة فـى هذا التكوين، فعمليـة الاختيار التى تـترك للطفل داخل هـذه المجتمعات لها دلالات خفية ترتبط من جهة، باختياراته المسـتقبلية وموقعه داخل المجتمع، وهى من جهة أخرى تُكون فيه الصلابة التى يحتاجها ليكون شجاعا ومتحكما فى وجوده داخل العائلة والعشيرة والقبيلة.

إن تعبير التميز للطفل ينطلق حسـب هذه النصوص من سـن السابعة أو الثامنة ويرتبط بطقوس تؤسـس بعملية الختان وحلق الرأس مع ترك أربع أو خمس شـعيرات تقطع فى احتفال عائلى كلما أقدم الطفل على عملية تعبر عن شـجاعته وبأسـه، حيث إنه فى كل مرحلة تقطع شـعرة إلى أن يصل إلى مسـتوى الحلق الكامل للشـعر، تعبيرا عن استعداده لدخول عالم الرجولة التى يستطيع الطفل تحقيقها قبل سن العشرين[٢].

معطـى آخـر يدخل فى هـذا التكوين والمتضمـن لعملية التدريب الذى يتلقاه الشـاب لاستعمال الخناجر قصد القيام بقطع لحم أعدائه بأظافره، وبذلك تعتبر التربية منذ الصغر على الجريمة ،حسـب تعبير سـونيى، أداة لعملية نبيلة يمارسها الفرد داخل مجتمعه[٣]. إن النعوت التى اسـتعملت للحكم على هذه المجتمعات مثل الشـجاعة والنهب والحرب تعتبر طبيعية إذا ما قسناها بحاجيات هذا المجتمع إلى مثل هذه الممارسات من أجل البقاء والاسـتمرار، فظاهرة القتل والقهر تصبح عادية لدرجة تجعل هذه المجتمعات تتباهى فيما بينها فى تجمعاتها بالانتصارات التى تحققها على الأعداء[٤].

---

(١) Ibid, p. 135.

(٢) Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 135.

(٣) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 202.

(٤) Saunier et Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 132 – 198.

إن هــذه النتيجة التى تبدو طبيعية إذا ما قســناه بأبعــاد ثلاثة تبدو حاضرة فى تكوين الفــرد داخل هذه المجتمعات تمثلها القوانين الطبيعية والاختيارات الحرة وإثبات الذات، ونعتقد أن حكم بريسون على كثرة عدم المهتمين بالتعلم يدخل فى الاختيارات التى يقدمها المجتمع للفرد فى أن يكون محاربا وهو ما يبرر التقسيمات الاجتماعية اللاحقة التى عملت على تقســيم هذه المجتمعات إلى قســمين، أهل السيف وأهل القلم، وبذلك يصبح التوحش نســبى وعدم التحضر بعيدا عن الدقة، حينما يتعلق الأمر بمجتمعات الرحل التى تؤســس لفاعلية اجتماعية تنبنى على التوازن، هذا التوازن الذى لا يكتمل إلا بقراءة للنصف الثانى من المجتمع الذى تمثله المرأة.

تعتبر المجتمعات الصحراوية مؤسسة لمنطق افتراضى تتحكم فيه عملية الاستمرار والتكاثر وتعتبر المرأة محورية هذه الاســتمرارية من حيث الأعمال التى تقوم بها وطبيعى أن يتدخل الرجل الذى يعتبر نفسه القيم والمسئول عن حفظ الاستمرارية عن طريق التخطيط والتفكير.

إن الاعتقاد الســائد من خلال نص خطاب الأســير حول المجتمعات الصحراوية يعطى صــورة قاتمة عن المرأة فــى المجتمعات الصحراوية، فقد نعتها هــذا النص بكل تعبيرات الإذلال والتحقير سواء فى مستوى مؤسسة الزواج أم الطلاق أم فى مستوى الأشغال الشاقة التى تمارســها، تهيئة الأكل وضمان التكاثر (٥ إلى ٦) أبناء فى المتوســط، أو على مستوى حلب النوق أو المعز أو تهيئة الزبد أو نسج غطاء الخيمة وبنائها عند الإقامة أو جمعها عند الرحيل، فالمرأة تأتى دائما فى المرتبة الثانية بعد الرجل وبعد الأبناء من الذكور.

لقــد أكــدت هذه النصــوص على التميز الــذى يحصل عند ولادة الزوجــة لفتاة أو ولد فالاحتفال يختلف ويقول بريســون: «كل امرأة أنجبت ولدا تقوم بطلاء وجهها بالأســود لمدة ٤٠ يوما أما إذا كانت أنجبت بنتا فلا تقوم بطلاء ســوى نصف وجهها ولنصف المدة أى ٢٠ يومــا»[1] أى إن مدة طقوس التطهــير تختلف باختلاف جنس المولود وإن كان هذا يعبر عن طقس عربى قديم فهو يعبر عن التمييز الذى يطرحه هذا المجتمع فى علاقته مع جنس المولود.

مســتوى آخر، فى هذه النصوص، يدخل فى إطــار العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمــرأة ويتعلــق الأمــر بقضية تعدد الزوجــات والطلاق والإرث، فيرى ســونيى أن تعدد

(١) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p 212.

الزوجـات قليـل فى هذه المجتمعـات كما أن الطلاق لا يحصـل إذا كان للزوجة أولاد، ويؤكد سونيى ذلك بقوله:

«فـى حالـة الخلاف بين الزوجين وانسـحاب الزوجة نحو أهلهـا ورفضها العودة إلى زوجها الذى يطلبها، فلها أن تتزوج بمن تريد، أما إذا كان لديها أولاد وغابت عن خيمتها لمدة تزيد على ثمانية أيام فتستحق العقوبة التى قد تصل إلى القتل»[١].

فصلت هذه النصوص كذلك فى مستويات العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مستويين يحمل الأول نوعا من الغرابة حينما يؤكد سـونيى أن التعبير عن الحب يمارس عن طريق الضرب[٢] كما أن للمرأة طقوسـا فى التعبير عن علاقتها بزوجها خاصة أثناء سـفره حينما تقـوم بدفن حجـرة دق أوتاد الخيمة فى الرمال معلنة عدم نقـل خيمتها أثناء غيابه وهى تتمنى له بصيغة أخرى سفرا موفقا[٣].

والنـوع الثانى لـه علاقة بالإرث وهو الذى لا يمكن فهمـه إلا فى إطار خصوصية هذا المجتمع الذى تفرض عليه قوانينه الطبيعية وعقلية ثقافته ممارسـات خاصة على مستوى التفضيل فى الإرث بين الولد والفتاة ويقول سونيى فى هذا الصدد:

«حينما يموت رب الأسـرة فإن جميع ممتلكاته الموجودة بالخيمة تصبح بيد أول الأبناء الموجوديـن أثناء وفاته، فكل المجوهرات والأموال والحلى تختفى ولا يسـتفيد منها باقى الأبنـاء، ولا يمكن لهم أن يقتسـموا سـوى الحيوانات والعبيد، الفتيات لا يشـاركن فى القسـمة، وينسـحبن عند أخيهن الكبير. إذا ترك المتوفى أطفالا صغار السن، فإن الزوجة تنسحب نحو أختها إذا كانت متزوجة، أو عند أمها. فى هذه الحالة فإن ممتلكات المتوفى لا تضيع ويتكلف رئيس العشيرة بضمانها إلى أن يوزعها على مالكيها بشكل متساو حينما يكونـون قادرين علـى حمايتها. إذا مات العربى دون أن يـترك أولادا ذكورا فإن الزوجة تنسحب عند والديها، ويرثه أخوه»[٤].

إن تأملنـا لهـذه القسـمة فى الإرث تؤكد ما ذهبنا إليه سـابقا حينما ناقشـنا الدور الذكـورى فى هذه المجتمعـات من جهة وأهمية تملك الأبناء من الذكور للقطيع خاصة من

(١) Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 149 – 150.

(٢) Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 150.

(٣) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. 212.

(٤) Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 148.

الإبــل والعبيــد من جهة فما عدا ذلك لا يهم، فالتميز مرتبط بعدد الأطفال من الذكور الذى يعنى التكاثر الجالب للقوة، وتملك أكبر عدد من الإبل يعنى تملك السلطة والقيادة، وتبقى بذلك القراءة المباشــرة لهــذه النصوص كما قد تفهم من أول وهلــة وكما يصورها أصحابها مرتبطة بنظرة دونية للمرأة داخل هذه المجتمعات وهو تصور خاطئ لأن المرأة فى مجتمعات الرحل تسهم فى احترام هذه القوانين الطبيعية، وإذا كان نص خطاب الأسرى قد تحدث عن تناول المرأة للطعام بعد الرجل فهذا يعتبر فى نظرنا نوعا من الاحترام لأنها تمارسه مع طفلها حينما يبدأ فى المشى، وتبقى المرأة فى هذه المجتمعات رمزا للتكاثر. أما الإبل فهى رمــز للحياة وأداة للتنقل فهى توفر الحليــب حوالى أربعة لترات ونصف تصنع منها الزبد ويمثلان إلى جانب الشعير المادة الغذائية الأساسية بالنسبة لهذه المجتمعات.

إن التميــز داخل رجالات هذه المجتمعات يرتبــط بالعائلات الكبيرة التى يختار منها رؤساء العشائر فرئيس العشيرة (تتكون العشيرة من حوالى ١٢٣ عائلة) يكون الأغنى والغنى له علاقة بعدد الإبل التى يمتلكها فهو سيد يتميز من خلال كبر خيمته التى تتوسط المخيم ومن خلال أحكامه التى يصدها والتى لا تقبل الاســتئناف، يتميز كذلك بكونه المستضيف للغريب فهو صاحب الخيمة الكبيرة والمقرر لتاريخ وزمن التنقل، وهو الذى يقتسم المجال حسب حاجيات القبيلة من المرعى وهو من يقرر تقسيم العشيرة إلى أقسام تتكون من ٧ إلى ٨ خيم إذا لم يكن المرعى كافيا للجميع[١].

إن ظاهــرة الكــرم فى المجتمعات الصحراوية ترتبط بمســتويين مســتوى قد نعبر عنه بالتضامن مع المتنقل عبر هذا المجال ومستوى أخر له علاقة بالمعلومة التى يمكن أن ينقلها هذا المسافر الغريب وهو ما يؤكده نص خطاب بريسون فهو يقول:

«يسأل المسافر عن الجهة التى جاء منها وإذا ما وجد فى طريقه العديد من المراعى وبعد إجابته عن هذه الأسئلة يسأل عن انتمائه القبلى»[٢].

إن بنيــة مكونــات هذا المجتمع من خلال هذه النصوص تكتمل من خلال حديثها عن الصناع (المعلمين) وقد تحدث بريسون عن وجود صانعين مثل النجار والحداد لكنه أغفل صناعات أخرى تقوم بها المرأة من نسج الصوف وصناعة القرب التى تحمل الحليب، وقد

(١) Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 142.

(٢) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 203.

تعامل بريسون حين حديثه عن هؤلاء الصناع بنوع من الاستهزاء والسخرية معللا تدخله فى العديد من المرات لتصحيح ما يقومون بصناعته، هذا بالإضافة إلى أنه أثناء حوار مع هذه المجتمعات نعتهم بالأنانية وبالتميز عن باقى الشعوب وأنه لا توجد أرض غير التى يوجدون فيها. كما تحدث على نوع من التميز بين القبائل الكبيرة والصغيرة التى تعيش تحت حماية القبائل الكبيرة وأكد على التباعد الذى يحصل بينهم فى عملية الانتجاع وفى المخيمات[1].

لقد كان عرضنا لنص الخطاب الفرنسى المنبثق عن الأسر انتقائيا بالأساس ركزنا فيه على نظرة الأسير المنتمى إلى فئة التاجر (Saugnier) والمنتمى إلى فئة العائلة النبيلة (Brisson) الأول استطاع الاندماج مع من سجنوه والثانى لم يستطع تحقيق ذلك.

إن عملية الانتقاء شملت بالأساس منظور الأوربى عامة والفرنسى على وجه الخصوص للمجتمعات الصحراوية فى المغرب وإذا كان (Maurice Barbier) الذىأصدر هذه النصوص سنة ١٩٨٤م، لتبيان معاناتهم من جهة ولتقديم وصفهم لمجتمعات الرحل حيث كانوا عبيدا لدى أسيادهم، فقد كان هدفه كذلك هو تأكيد عزلة هذه المجالات عن السلطة المغربية.

لقد ركزنا فى عملية الانتقاء التى عرضناها معتمدين منهجا تحليليا يعتمد قراءة أخرى اعتمدت بالأساس على النص الخلدونى وما أسميناه بالتوازن البيئى الذى يفرض على مجتمعات هذه المجالات أن تعيش مجبرة بطرق خاصة بها تتلازم ومحيطها، لقد ركزنا فى انتقائنا على أربع قضايا أساسية فى هذه الخطابات، ويتعلق الأمر بأطروحات ثنائية تتضمن الشجاعة والتوحش، والقيادة والتميز واستراتيجية التدبير، والمرأة والقطيع وسر الاستمرارية والتكاثر، وأخيرا الطقوس والممارسات الدينية. لقد حاولنا فهم هذه الثنائيات وتحليلها فى ضوء الخطاب الخلدونى الذى يركز على هذه القضايا الثنائية، فهو يؤكد على أن اختلاف المجتمعات مرتبط بنحلتهم فى المعاش بحيث تغلب عليهم صفة التعاون من أجل الاستمرار، فعزلة هذه المجتمعات تقتضى التوحش من أجل توفير الحماية والتى لا يمكن إلا أن تكون ذاتية، وهو ما يفسر طبيعة تكوين الأطفال كما عرضته النصوص الفرنسية أى التربية على الشجاعة التى تعتبر فعلا ضروريا لتحقيق الحماية، كل هذا تجسده ثقافة عبر عنها ابن خلدون بقوله: «.. بعلاقة معاشهم على الإبل ورعايتها

(١) Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 204 – 206.

ونتاجها... وربيت فيه أجيالهم»[1] وإن كان ابن خلدون لم يسرح فى هذه المقولة بدور المرأة فى هذه المجتمعات فمساهمتها فى تربية الأجيال وتحويل نتاج الإبل إلى الغذاء الأساسى لهذه المجتمعات يدخل ضمن ما أسميناه بالمقاربة الثنائية «المرأة والقطيع والاستمرارية والتكاثر» إن منهجنا فى مقاربة هذه النصوص لم يهتم بمسألة النقد لهذه النصوص ولكن ذهب أبعد من ذلك من خلال قراءتها فى ذاتها ومحيطها.

المقاربة العلمية: أهمية المجال واستراتيجية المراقبة

إن الدراسات الفرنسية الصادرة خلال مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى تدخل ضمن البحث العملى وهو توجه برز لدى المؤسسة الاستعمارية الفرنسية للتحكم من جهة فى مجال أمامى للسيطرة الفرنسية تمثله كل من الجزائر منذ ١٨٣٠م والسنغال منذ ١٧٧٩م وموريتانيا منذ ١٩٠٣م، ومن جهة أخرى، فهو محاولة لحماية هذا المجال من تطلعات الدول الأوربية المنافسة التى تمثلها إسبانيا وإنجلترا، هذه المعطيات جعلت فرنسا تهتم أكثر بصحراء جنوب المغرب، وهو ما عبرت عنه فى المؤتمر الذى نظمته مؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط فى الثالث من مايو سنة ١٩٣٠م، والذى أكد من خلاله مدير الدراسات الجغرافية (M. J CELERIER) أهمية الاهتمام العلمى بالصحراء، فهو يقول:

«من الضرورى الاهتمام بعلم الصحراء، لاعتبارات تتمثل فى أن الصحراء تشكل عالما مميزا وله بصمة خاصة ومختلفة تماما، حيث لا يمكن أن نطبق فيه نفس السياسة التى نمارسها على عالم المستقرين فى الأطلس»[2].

إن الهدف الأساسى من هذا الكلام وفى هذا المؤتمر هو توفير المعلومة العلمية حول الصحراء خاصة وأن الحقيقة حسب سيليريى تبقى دائما إضافة إيجابية. فلا يمكن فهم حقيقة المغرب دون مصادفة مشاكل علاقاته مع الصحراء سواء عبر التاريخ منذ عهد المرابطين إلى حركة الهبة مرورا بوصول قوات المنصور إلى تمبوكتو، وهو ما يؤكد نوعا من التداخل الاجتماعى والمجتمعى والثقافى بين قبائل شمال جبل بانى وجنوبه.

(١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٤٨٥.

(٢) M. J. Célérier, L'intérêt du Sahara occidental pour l'étude du Maroc, Acte du VII congrès de l'institut des hautes études Marocain, in Hespéris, Vol.XI, 1930, p. 3.

لقد كان الهدف من هذا المؤتمر بالنسبة لفرنسا هو تحقيق نتيجتين الأولى استراتيجية تتمثل فى ضبط هذا المجال والثانية تدخل فى محاولة لرسم الخريطة الاجتماعية للحركات الثقافية والمجتمعية، وقد اخترنا لقراءة هذه الثنائية المعرفية ما كتبه الباحث الفرنسى (Robert Montagne) الضابط فى البحرية الفرنسية والذى انتقل إلى المغرب بعد الحرب العالمية الأولى ليثير انتباه اليوطى ويصبح مستشاره الخاص وقد قام بالعديد من الأبحاث الاجتماعية والاثنولوجية حول المغرب وأصبح أستاذا محاضرا فى مؤسسة الدراسات العليا المغربية فى الفترة الممتدة بين سنتى ١٩٢٤م و١٩٣٠م قبل أن يناقش أطروحته التى خص بها دراسته حول البربر والمخزن فى الجنوب المغربى وقد تقلد العديد من المهام الإدارية والعلمية إلى وفاته فى حدود سنه ١٩٥٤م.

نستعمل نصين لمقاربة تصوره حول مجال ومجتمع الصحراء، النص الأول أعتبره نظريا مستخرجا من كتابه الصادر فى باريز سنة ١٩٤٧م تحت عنوان «حضارة الصحراء: رحل المشرق وإفريقيا»، أما النص الثانى فهو عبارة عن دراسة عرضها فى مؤتمر الرباط سنة ١٩٣٠م والتى عنونها بـ حدود المغرب والصحراء الأطلنطية.

إن كتاب مونطان حول حضارة الصحراء يعتبر نتاجا لتجربة مشاكل الرحل تم جمعها خلال خمس وعشرين سنة من الرحلات فى إفريقيا والمشرق فهو يحمل نظرة شاملة لسؤال معقد والذى تعتبر عناصره فى بعض الأحيان مشتتة ويصعب الحصول عليها، ففى هذا الكتاب يتحدث مونطان عن الحياة المادية والتنظيمات الاجتماعية والمعتقدات والتشريعات[1]، وما يهمنا فى هذه الدراسة نظرته المنهجية لمقاربة مثل هذه المجتمعات، فهو يؤكد أن دراسة مجتمعات الرحل تحمل صعوبة حقيقية حيث يرى أنه ليس من السهولة معرفة ومتابعة تنظيم داخلى لمجموعة مشكلة من خيم مشتتة فى مجال غير محدد ومتنقل، حيث إن التمييز فى مثل هذه الحالات يبقى غير ثابت، فهو يقول:

«العرب والبربر لا تتمثل لديهم العلاقات السياسية سوى عن طريق رابطة الدم أو الانتماء، ويبدو صعبا التمييز بين الانتماء الأبوى والانتماء الاجتماعى، فحينما يتعلق الأمر بكنفدرالية كبيرة فلا يمكن أن نفسر عملية الانتماء بنفس الطريقة، حيث توجد عناصر

(١) Monteil Vincent, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, in Politique étrangère, V13, N3, 1948, p. 264.

مختلفة تحدد أسباب دخول مكونات هذه الكنفدرالية وحتى إن استطعنا وضع جدول لهذه التجمعات الكبيرة فهو يحتاج دائما إلى تحسينات»[1].

إن هذه المقاربة هى التى حاول مونطان الإجابة عنها من خلال النص الثانى الذى عمل من خلاله على تجاوز الإشكال الذى تطرحه دراسة هذه المجتمعات، وبرغم كون نتيجة هذه الدراسة ترتبط بما ذهبنا إليه سابقا، والمتمثلة فى استراتيجة استعمارية بالأساس، إلا إنها تحمل منهجية علمية حاولت فهم المكونات الممكنة لهذه المجتمعات، وبرغم أن البعد اللسانى والاجتماعى كان حاضرا ضمن تحديد أوسع تمثله الجغرافية البشرية، فإن هذه القراءة التى وضعها مونطان فى هذه الدراسة تفسر سبب اهتمام فرنسا بمجال ما بعد واد نون وبانى أى مجال كونفدارية تكنة، ولماذا يبدو الأمر أصعب بالنسبة لها فى مجال أعمق خاص بمجال الركيبات؟

إن السؤال المحورى الذى وضعه مونطان فى دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنطية يتمثل فى: هل توجد حدود تفصل بين الصحراء الأطلنطية وجنوب المغرب، حدود جغرافية وطبيعية ترسم فى نفس الوقت تحولات فى الحياة المادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع؟ هل توجد خطوط فاصلة بين عالم الاستقرار والترحال؟ هل نمر بمرحلة انتقالية بين الجهة الجنوبية للأطلس الصغير إلى السهوب ما قبل الصحراوية فى درعة، بشكل يؤكد لنا أننا نتجه نحو الصحراء حيث توجد الرمال؟

لقد حاول مونطان من خلال دراسته تتبع التحولات الممكنة لمجتمعات هذه المجالات مركزا على حركية سكان الجبال وعلاقاتهم بالزراعة قرب الأنهار فى درعة ونون، وعرضه كذلك للحاجز الطبيعى الذى يمثله جبل بانى بين شمال يسكنه مجتمع ناطق بالأمازيغية وآخر نحو الجنوب ناطق باللسان العربى الذى تمثله سلطة بنى معقل منذ خمسة قرون.

إن الإطار الذى يهمنا فى هذه المقاربة، التى تؤسس للبنية المعقدة للمجتمعات الصحراوية فى الجنوب المغربى كما عرضها مونطاى فى مستوياتها النظرية، تكمن فى أن الحدود الطبيعية الفاصلة بين المجالين هى فى نفس الوقت تتضمن مستويين من التنظيم السياسى والاجتماعى. ففى الأطلس الصغير كما هو الحال فى مجالات سوس فإن البنية السياسة

(١) Robert Montagne, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, Paris, Hachette, 1947, p. 49.

تعتمد بالأســاس تقســيمات القبائل إلى مجموعات تستقر فى مجال يمتد بين ٤٠ و٥٠ كيلو مترا مربعا ويتكون من ســاكنة تتراوح بين ٢٠٠ و٤٠٠ كانون[١]، وتشــكل هذه المجموعات جمهوريــات صغيرة تســير من طرف الأمغار وهى ظاهرة تنتشــر بشــكل كبير فى الجهة الشمالية للأطلس الصغير[٢]. إن أهمية هذه المجموعات الصغيرة تبرز فى تشكيل التحالفات فــى حالة الحرب كما هو الحال بالنســبة للفــى تحكًات وتَاكُوزُلْت، لقد كانت مؤسســة اللفوف، برغم قدمها، ضرورية فى هذه المجتمعات لتحقيق التوازن بين مجموعات بشرية كبيرة الانتشار تعيش طليقة ولا تخضع لحكم مركزى يضمن التوازن[٣].

أما على مستوى الجهة الجنوبية لواد نون فإن المجموعات الاجتماعية تظهر لنا ببنيات مختلفة، فهى، يؤكد مونطان، عبارة عن تجمعات صغيرة مكونة من ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ كانــون يصعــب تحديدها، هذا بالإضافة إلى أنها، حســب مونطان، لا تتوفر على مجلس للوجهاء وتجمعاتها تتم بالصدفة لمناقشة مستويين حالة الحرب والنقاش حول المراعى. إن هذه الوضعية تجعل كل رئيس خيمة رئيسا عن نفسه، وفى هذه الحالة تتحول الوحدة إلى كونفدرالية تضم آلاف الكوانين مثل ما هو الحال بالنسبة لكونفدرالية تكنة، وهو ما ينطبق على إد بلا وإد الجمل.

إن الاختلاف داخل هذه المجموعة مقارنة مع لفوف الشــمال يكمن فى الحرية التامة فــى اختيارها الجهة التى تريد الانتماء إليهــا، وتقدم خدمة الحرب لمن تريد ودون تقديم أى تبرير[٤].

إن هذا التوجه الذى يحمل بعدا اجتماعيا مرتبط أساسا بطبيعة المجال الذى يتحكم فى ظروف التموقع داخل التحالفات حفاظا على آليات البقاء والاستمرار، وهو ما يفسر ظاهرة الانتماء التى تتجاوز علاقة الدم نحو علاقة أكثر عمقا وهى التى تشكل القراءة الثانية لمواطن التحول الاجتماعى نحو المناطق الصحراوية التى حددها بأيت يوسى التى تعتبر آخر شكل للتحــول قصد المرور من الترحال الصغير نحــو الترحال الكبير الذى تمثله قبائل الركًيبات المميزين بدوابهم وتنقلاتهم الواسعة.

---

(١) الكانون يعنى الأسرة التى تتشكل من ٥ إلى ٦ أفراد.

(٢) Robert Montagne, La limite du Maroc et du Sahara atlantique, in Hepéris,Vol XI, 1930, p. 115.

(٣) على صدقى أزايكو، تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة، الرباط، مركز طارق بن زياد، ٢٠٠٢م، ص ١٥٢.

(٤) Robert Montagne, la limite du Maroc et du Sahara atlantique, op. cit. p. 116.

التميــز الاجتماعــى الثانى يحــدده مونطان فى مؤسســة ذات طابع سياســى معروفة «بالدبيحة» وهى مؤسسة غير موجودة شمال نون وبانى وهى عبارة عن اتفاق حماية تجمع مجموعة اجتماعية أو قبيلة مع غريب جاء للاســتقرار فى مجالها أو للعبور، هذه الحماية تكــون مضمونــة ليس من طرف كل المجموعة، ولكن من خــلال أحد وجهاء القبيلة الذى يتميز بغناه الرمزى الذى تمثله ملكيته لقطيع من الإبل، والذى يتحول شــيئا فشــيئا نحو ســلطة عن طريق مســاعدة القبائل التى تعيش فوضى والتى تعتبر بالنسبة إليه خزانا للقوة يمكن استعمالها ما دامت مصادره تسمح بذلك.

إن هــذا الحاجز الطبيعى والاجتماعى واللســانى الذى ناقشــه مونطان من خلال نصه يعتــبر افتراضيا بحيث تم تجاوزه عبر التاريخ فى الاتجاهين معا حيث إن كل من تجاوزه يغير عاداته وتقاليده الاجتماعية لدرجة أن نفس مجموعة الانتماء قد تختلف جذريا حسب موقعها فى مجالى الترحال أو التنقل، وهو ما يؤســس لشــكل من الازدواجية يحكمها من جهــة الفطام مع المرجعية الأصليــة، والتكامل فى إطار الحراك الاجتماعى،[1] الذى يؤكد على وجود نوع من التداخل الثقافى بين المجتمعات المستقرة فى واد نون ورحل مجتمعات البيضان التى كانت تتجه نحو الشمال حينما تضيق وتنعدم مراعى الجنوب.

الخلاصات المنهجية والأهمية التاريخية

بين الأسير والباحث مسافة على مستوى الزمن القرن الثامن عشر بالنسبة للأول والقرن العشــرون بالنسبة للثانى، هو انتقال من معانات الأسير مع الأسر ولكن كانت الكتابة أداة للتنبيه والوصف، وتنبيه المجتمعات الأوربية لخطورة المجال وصعوبته، هذه الصعوبة التى حاول البحث فهمها لتحليلها اســتراتيجيا واجتماعيا خدمة لمصلحة استعمارية بالأساس، ولكنــه فى ذات الوقت أداة لتبرير الاختيارات الفرنســية فى تحديد مجالات اســتعمارها للمغرب فى واد نون.

لم ننطلــق فــى مقاربة النصين من الهدم المعرفى نحو التأســيس المعرفــى البديل ولكن قراءتنــا ارتبطت بالنص وحاولت فهمه لذاتــه وظروفه وحيثياته، لقد اعتمدنا فى التحليل

(١) Henry Marchat, La frontière Saharienne du Maroc, in politique étrangère, Vol. 22, N. 6, 1957, p. 640.

علــى المقاربة التى انطلقت من الطرح الخلدونى الذى حاول فهم مجتمع البدو انطلاقا من نمط العيش المفروض عليه والذى أســس لبنية اجتماعية لا تعتمد التراتبية وإنما تنطلق من معطيــات الفاعل الاجتماعــى، وهو اتجاه نتفق من خلاله مع الطــرح العلمى الذى حدده مونطان فى مستواه النظرى والذى سمح لنا باستنباط فرضيات لفهم المجتمعات الصحراوية فــى المغرب والمبنية أساســا على خلق التوازن داخل بيئة صعبــة تقتضى بنية بيداغوجية خاصة وهى النتيجة التى تضفى الأهمية التاريخية لمثل هذه النصوص.

❑❑❑